

القيم الأخلاقية عند ابن مسكويه.

اد موسى معيرش / موسى معيرش، جامعة عباس لغرور الجزائر

لخضر شناق / جامعة باريس 8 فرنسا

تاريخ النشر: 2020/02/11	تاريخ القبول: 2019/12/14	تاريخ الإرسال: 2019/12/09
<p>ملخص:</p> <p>يعد ابن مسكويه، عقلية فلسفية كبيرة بما تميزت به من قيم بعامة وأخلاقية منها بخاصة، وقد حجز لنفسه هذه المكانة بما تركه من مؤلفات في هذا الجانب، وخاصة كتابه تهذيب الأخلاق.</p> <p>فهل يمكن الحديث عن نظرية أخلاقية في فلسفته، أم أنه اكتفى بتريديد ما ذكره الاقدمون؟ وأخيرا فيما تتجلى معالم فلسفة الرجل الخلقية؟</p>		
<p>الكلمات المفتاحية: الأخلاق، تهذيب الأخلاق، المذهب، الثقافة الإسلامية، الفضيلة.</p>		
<p>Résumé :</p> <p>ibn meskaouih il se considère comme une grande personnalité philosophique par excellence sans raisonnement philosophique contient des valeurs en général et des principes de morale en particulier notre philosophe a bien réussi à donner à sa pensée sa place prestigieuse dans le monde de la philosophie son travail intitulé tardive (alakhlak) et d'autres travaux bien sûr démontre clairement cette considération. De ce fait notre essai et de savoir si ce sera possible de parler d'une théorie morale dans sa philosophie ou bien si il s'agit juste d'une répétition ou même d'une continuité à des anciens personnes enfin nous cherchons à savoir sur quelle conception se traduit sa philosophie morale.</p>		
<p>Mots-clés: la morale, tendance, la doctrine, la culture islamique, la vertu</p>		

الحديث عن الفلسفة الاخلاقية أو بالأحرى القيم الأخلاقية عند بن مسكويه ، تحتاج قبل كل شئ للحديث عن الرجل ، وبخاصة تذكير القارئ الكريم ببعض محطات حياته ، مبتدئين بالاسم الذي عرف به، هو : " أبوعلي بن مسكويه ، الطيب ، اللغوي ، المؤرخ ، الذي كان أثيرا عند عضد الدولة ، وصاحب خزائنه ، وتوفي عن سن عالية في عام 1030م¹. أما في كشف الظنون فهو : "الشيخ أبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه (المتوفى سنة 421 إحدى وعشرين وأربع مئة"².

وفي التعريف به كتب القفطى قائلا: " مسكويه أبوعلي الخازن من كبار فضلا العجم وأجلا الفرس، له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية والعلوم القديمة كان خازنا للملك عضد الدولة بن بويه مأمونا لديه أثيرا عنده وله مناظرات ومحاضرات وتصنيفات في العلوم... وعاش زمانا طويلا إلى أن قارب سنة عشرين وأربعمئة"³.

ويضيف القفطى متحدثا عن مؤلفات بن مسكويه قائلا : " فمن تصانيفه كتاب أنس الفريد ، وهو أحسن كتاب صنف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف وكتاب تجارب الأمم في التاريخ بلغ فيه إلى بعض سنة اثنتين وسبعين وثلاثمئة وهي السنة التي مات فيها عضد الدولة بن بويه صاحبه وهو كتاب جميل كبير يشتمل على كل ماورد في التاريخ مما اوجبه التجربة وتفريط من فرط وحزم من استعمل الحزم وله في أنواع علوم الأوائل كتاب الفوز الكبير وكتاب الفوز الصغير وكتاب في الأدوية المفردة وكتاب في تركيب الباجات من الأطعمة أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبيخ وفروعه بكل غريب حسن "⁴.

و هو عند ناجي التكريتي: " أبوعلي بن محمد مسكويه(330 هـ ، 421هـ) من فلاسفة المسلمين الذين اهتموا بالأخلاق اهتماما خاصا...أتجه إلى دراسة الأخلاق اتجاها كاملا وألف عدة كتب في الأخلاق مثل تهذيب الأخلاق والفوز الأكبر والفوز الأصغر والحكمة الخالدة بالإضافة إلى عدة كتب أخرى فلسفية طبية وتاريخية. أما ثقافته، فبالإضافة إلى ثقافته الإسلامية، فقد

¹ دي بور : تاريخ فلاسفة الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ص 249.

² مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة : كشف الضنون عن أسماء الكتب والفنون ، وكالة المعارف الجلييلة ومطبعها، سنة 1360 هـ ، 1941 م ، المجلد الأول ، ص 514.

³ جمال الدين أبي الحسن بن علي بن يوسف القفطى: تاريخ الحكماء، مختصر الزويني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى ببغداد، مؤسسة الخانجي مصر ، ص 331،332.

⁴ المصدر نفسه، ص331،332.

درس الفلسفة اليونانية وتأثر بفلاسفتها لاسيما أرسطو وافلاطون وجالينوس رغم تضلعه بالثقافة الفارسية¹.

وبحسب دي بور فإن العديد من كتب التراجم، ترجمت لمسكويه، كما هو شأن القفطى، حاجي خليفة، ويضيف قائلا: "وقد خلف بن مسكويه، فيما خلف مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق يومنا هذا، وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس، ومن أحكام الشريعة الإسلامية، غير أن نزعة أرسطو غالبية عليه"².

وتجسد مذهب الرجل الأخلاقي في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، الذي طالما أشاد به مؤرخي الفنون والمعارف، كما هو شأن حاجي خليفة الذي قال عنه: "ويشتمل على ستة مقالات، أوله اللهم إننا نتوجه إليك الخ، وهو كتاب مفيد في علم الأخلاق"³.

وقد وقفنا على طبعة نادرة من هذا الكتاب، صادرة في مصر سنة 1329 هـ⁴، يذكر فيه الغرض من تأليف كتابه هذا قائلاً: "قال أحمد بن محمد بن مسكويه غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ماهي وأي شيء هي ولا شيء أوجدت فينا أعني كمالها وغايتها وما قواها وملكاتنا التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العليا، وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكها فتفلق وما الذي يدسها فتخب"⁵.

لنصل هنا إلى التساؤل المتعلق بمدى أصالة مذهب الرجل الأخلاقي وطبيعته، مما يقودنا أولاً إلى بحث حقيقة هذا المذهب الأخلاقي، أو بالأحرى فلسفته الأخلاقية، حيث نجدنا تنطلق من الثنائية التقليدية التي تميز رؤيته بشكل عام، فهو من جهة فيلسوف مسلم ومن جهة أخرى يتضح ميله للفلسفة اليونانية بمذاهبها المختلفة وخاصة المشائية المشخصة في كل من: سقراط، أفلاطون وأرسطو، وهذا ما تكشف عنه كتاباته الأخلاقية، التي توزعت في عدة أعمال كما ذكرنا من قبل.

يقول ناجي التكريتي: "لاشك أن مسكويه اقرب إلى أرسطو في كليات فلسفته إلا أنه يقترب كثيراً من فلسفة أفلاطون، إذ لا بد أنه درس وقرأ كتب أفلاطون الأخلاقية والسياسية وهضمها جيداً، فهو عندما يستشهد بأفلاطون يشير إلى كتبه بالذات ككتاب طيماوس أو النواميس بالإضافة إلى الكتب الأخرى

1. ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، دار الأندلس، الطبعة الثانية، 1401هـ، 1982م، ص 343.

2. دي بور: تاريخ فلاسفة الإسلام، ص 249.

3. مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، المجلد الأول، ص 415.

4. ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة المعارف، مصر، سنة 1329 هـ.

5. المصدر نفسه: ص 2، 3.

التي لم يذكرها ونشعر نحن أنه تأثر بها، كالجمهورية وفيدون وغيرهما. فعندما ينصح مسكويه على اتباع فضيلة مثلا، فهو يشير إلى أفلاطون: وقال أفلاطون: من التمس أمرا لا بد له من الوصول إليه صبر على الطريق وما يلحقه فيه من صعوبة ومشقة"¹.

وبهذا نستطيع القول أن فلسفة الرجل الأخلاقية، تنطلق من الحديث عن النفس وقواها، وهذا منهج سابقه من الفلاسفة، كما هو شأن فلاسفة اليونان والاسلام على حد سواء، وهذا ما أوضحه ناجي التكريتي عندما قال: "وكما أقام معظم فلاسفة الاسلام دراساتهم في الاخلاق على نظرياتهم في النفس، كما فعل مسكويه"².

وهو ما يتضح لنا أيضا عند عودتنا لكتابه تهذيب الأخلاق، حيث وجدناه يتحدث عن فضيلة النفس قائلا: "أما شوقها إلى افعالها الخاصة بها أعنى العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له من هذا المعنى بجهده وطاقته، وقد وضح مما تقدم ما الأشياء العائقة لنا عن الفضائل أعنى الأشياء البدنية والحواس وما يتصل بها فأما الفضائل أنفسها فليست تحصل لنا إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التي هي اضدادها أعنى شهواتها الرجئية الجسمانية ونزواتها الفاحشة المهيمنة فان الانسان إذا علم أن هذه الأشياء ليست فضائل بل هي رذائل تجنبها وكره أن يوصف بها، وإذا ظن انها فضائل لزمها وصارت له عادة وبحسب التباسه وتندسه بها يكون بعده من قبول الفضائل"³.

بينما نجده يربط قوى النفس الثلاثة بالفضائل، وهذا ما يوضحه بقوله: "وقد تبين للناظر في امر هذه النفس وقواها انها تنقسم الى ثلاثة أقسام أعنى القوة التي يكون بها يكون الفكر والتميز والنظر في حقائق الامور والقوة التي بها الغضب والنجدة والاقدام على الاهوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات والقوة التي تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق الى الملاذ التي في المأكول والمشرب والمناكح وضروب اللذات الحسية وهذه الثلاثة متباينة ويعلم من ذلك أن بعضها إذا قوي اضر بالآخر وربما أبطل إحداها في الأخرى، وربما جعلت قوى لنفس واحدة والنظر في ذلك ليس يليق بهذا الموضوع وأنت تكتفى في تعلم الأخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأدب"⁴.

1. ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الاسلام، ص343.

2. المرجع نفسه: ص344.

3. ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص11، 12.

4. المصدر نفسه: ص19، 18.

ويحدد علاقة كل قوى من هذه القوى بما يقابلها من فضائل ، فيقول: " فالقوة الناطقة هي التي تسمى الملكية وآلتها التي تستعملها هي الدماغ، والقوة الشهوية هي التي تسمى بالبيهيمية وتلتها التي تستعملها من البدن الكبد، والقوة الغضبية هي التي تسمى السبعية وآلتها التي تستعملها من البدن القلب فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى، وكذلك أضدادها التي هي رذائل فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها الى المعارف الصحيحة لا المظنونة معارف وهي بالحقيقة جهالات حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبئة عليها فيما تقسطه لها ولا منمكة في اتباع هواها حدثت منها فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء ومتى كانت فضيلة النفس الغضبية معتدلة تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج في غير حينها ولا تحمي أكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم وتتبعها فضيلة الشجاعة"¹.

ونتيجة اعتدال هذه الفضائل ونسبة نبعضها إلى البعض، يرى ابن مسكويه أنه ينتج عنها فضيلة رابعة هي العدالة، وهذا ما يتضح لنا في قوله: " أن أجناس الفضائل أربع وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ولهذا لا يفتخر أحد ولا يتباهى إلا بهذه الفضائل فقط أما من أفتخر بأبائه وأسلافه فلانهم كانوا على بعض هذه الفضائل أو عليها كلها وكل واحد من هذه الفضائل إذا تعدت صاحبها إلى غيره تسمى صاحبها بها ومدح عليها واذا اقتصرت على نفسه ولم لم يسمى بها بل غيرت هذه الاسماء"².

لينتقل الرجل بعد ذلك ، إلى إبراز مميزات وخصائص كل فضيلة من هذه الفضائل، ففيما يتعلق بالحكمة، نجده يضعها في مقدمة بقية الفضائل ، ويبرر ذلك بقوله: " أما الحكمة فهي فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة، وإن شئت فقل أن تعلم الأمور الالهية والامور الانسانية ويثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل"³.

و يحدد ابن مسكويه مجموعة من الفضائل أو بالأحرى الصفات التي تندرج تحت فضيلة الحكمة ، فيقول: "الذكاء، الذكر التعقل ن سرعة الفهم وقوته، صفاء الذهن سهولة التعلم، وبهذه الأشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة"⁴.

1. المصدر السابق: ص 19، 20.

2. المصدر نفسه: ص 20.

3. المصدر السابق: ص 21.

4. المصدر نفسه: ص 23.

أما الفضيلة الثانية ، فهي العفة، ويحدد مجال إختصاصها بقوله: "وأما العفة فهي فضيلة الحس الشهواني وظهور هذه الفضيلة في الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأبأعنى أن يوافق التميز الصحيح حتى لاينقاد لها ويصير بذلك حرا غير متعبد لشيء من شهواته"¹.

وتندرج تحت فضيلة العفة: "الحياء، الدعة الصبر، السخاء ، الحرية، القناعة، الدمائية، الانتظام، حسن الهدى ، المسالمة ، الوقار، الورع"².

لتأتي الفضيلة الثالثة المسماة الشجاعة ، فهي: "فضيلة النفس الغضبية وتظهر في الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمال ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة اعني أن لا يخاف من الأمور المفزعة اذا كان فعلها جميلا والصبر عليها محمودا"³.

وتندرج تحت هذه الفضيلة: "كبر النفس ، النجدة، عظم الهمة ، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، إحتمال الكد ، والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي يكون في العفة أن هذا يكون في الامور الهائلة وذاك يكون في الشهوات الهائجة"⁴.

ليصل في الأخير إلى فضيلة العدالة، التي يجعل منها: " فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث ... وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها... ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها ابدا الانصاف من نفسه على نفسه اولاً ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله"⁵.

وتندرج تحت هذه فضيلة العدالة: " الصداقة ، صلة الرحم، المكافأة، حسن الشركة، حسن القضاء، التودد، العبادة ، ترك الحقد، مكافأة الخير بالشر، استعمال اللطف، ركوب المرؤة في جميع الأحوال، ترك المعاداة ، ترك الحكاية عمن ليس بمعدل مرضى ، البحث عن سيرة من يحكى عنه العدل، ترك لفضة واحدة لا خير فيها لمسلم... تركقول من يكدى بين الناس ظاهرا أو باطنا"⁶.

ولعل من أهم المسائل التي عرض لها الرجل في فلسفته موضوع الخير والشر، حيث نجده يذهب إلى أن الخير: "بالإجمال هو ما يبلغ الكائن المرید غاية وجوده أو كمال وجوده ، ولا بد في الموجود، لكي يكون خَيْرًا، من توفر استعداد متّجه إلى غاية. غير أن الناس يختلفون في استعداداتهم إختلافا جوهريا، ويرى

1. المصدر نفسه: ص 21، 22.

2. المصدر نفسه: ص 24.

3. المصدر السابق: ص 22.

4. المصدر نفسه: ص 25.

5. المصدر نفسه: ص 22.

6. المصدر نفسه: ص 27.

ابن مسكويه أن من الناس فئة اخيارا بالطبع ، وهم فئة قليلة ، ولا ينتقلون إلى الشر بحال، لأن ماهو بالطبع لا يتغير، أما الأشرار بالطبع فكثيرون، ولا يصيرون إلى الخير ألبتة، وثمّ قوم هم بفطرتهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وينتقلون إلى الخير أو إلى الشر بالتأديب، أو مصاحبة الأخيار أو أهل الغواية¹.

وأخير أن يمكننا القول أن ابن مسكويه قدم رؤية مميزة لفلسفة أخلاقية تجمع بين الأثر الاسلامي، والحكمة اليونانية ، مع التأكيد هنا أن الرجل ، رغم تأثره ببعض فلاسفة اليونان ، إلا أنه لم يكن أسيرا لرؤية محددة ، فقد جمع بين يديه ، عدة آراء ومواقف لفلاسفة يظهر للكثيرين أنهم على خلاف فيما بينهم .

وهذا ما تنبه إليه العديد من المهتمين بفلسفة الرجل، كما هو الحال مع ناجي التكريتي، الذي نجده يعبر صراحة عن هذه الفكرة عندما يقول: "رغم تلمذة مسكويه على فلاسفة اليونان ومزجه بين آرائهم ، لكنه مع هذا يخضع كل هذا لرأي الشريعة الاسلامية وموافقها عليه، فمثلا: عرف عن سقراط أنه أول من قال: إن المرء لا يفعل الشر وهو عالم به ، وإن الإثم الأخلاقي هو جهل وسوء تقدير.

مسكويه يتبنى هذا الرأي ويقول أنه من المستحيل أن يعمل الانسان عملا شائنا وهو يعلم أنه شائن"²، وستدل في هذا الأمر ، بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم جاء فيه: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"³

وهكذا يمكننا القول أن مسكويه كما يسميه البعض أو ابن مسكويه كما يطلق عليه البعض الآخر ، قدم فلاسفة أخلاقية ، متكاملة ، جمعت بين رؤية الدين الاسلامي الذي ينتهى إليه ويؤمن به من جهة ، وبين العقل الفلسفي اليوناني في مختلف تجلياته من جهة ثانية، مسترشدا في منهجه التوفيقى ، بقول النبي محمد: "الحكمة ضالة المؤمن أن وجدها فه أحق بها"⁴.

¹ دي بور : تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص251.

² ناجي التكريتي : الفلسفة الاخلاقية الأفلاطونية، 344.

³ متفق عليه.

⁴ رواه ابن ماجة.

المصادر والمراجع:

- ¹⁻ دي بور: تاريخ فلاسفة الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.
- ²⁻ مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة : كشف الضنون عن أسماء الكتب والفنون، وكالة المعارف الجليلية ومطبعها، سنة 1360 هـ، 1941 م ، المجلد الأول.
- ³⁻ جمال الدين أبي الحسن بن علي بن يوسف القفطي: تاريخ الحكماء، مختصر الزويني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى ببغداد، مؤسسة الخانجي مصر.
- ⁴⁻ ناجي التكريتي : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الاسلام، دار الأندلس، الطبعة الثانية، 1401هـ، 1982م.
- ⁵⁻ مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة : كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون، المجلد الأول.
- ⁶⁻ ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة المعارف، مصر ، سنة 1329 هـ.